

## نبيلة وناس

### (17) (بالفطرة)

إنها المرة الأولى في حياتي التي أرفض فيها أوامر والدي.

بالرغم من انصياعي التام لها، إلا إنني رددتُ عليها رافضة، وتضرّعت لها مستعدة للموت، على أن أحرم أحدهم حياته، وأُهْلِكُ من أحببتهم وعشت بينهم سنوات طويلة أراقب أطفالهم وهم يكبرون بقربي، حتى مرحلة نضجهم.

إنهم شباب قرية النهر.

لطالما سعدتُ وأنا أراهم يلعبون ببراءة متناهية، لا يعلمون من تكون تلك التي تبتسم لهم برضى واهتمام، وبسداجة مطلقة كانوا يمنحونا أنا وأمي المتوحّشة ثقتهم التامة، لم يعرفوا حقيقة الفتاة التي تظهر بينهم وتختفي، وتراقب في صمت يومياتهم، وهي تخفي شخصيتها المخيفة: كونها بذرة شر وُلدت تحت ظل أعتى النداهات وأشدهنّ ضراوة، تتجول بينهم صباحا متخفية في زي فلاحاة مليحة الوجه، تلبّي حاجيات الفلاحات وتحضرها لهنّ، وفي ظلمات الليل تفترس أزواجهن وتبتّم أبناءهن، والأدهى من ذلك: تبكي وتنوح معهن، وتتمنّى لهن الصبر والسلوان، لم تُبقي بينهم رجلاً أو شاباً، حتى جاء الوقت الذي كَبُرَ فيه الصغار وتغيّرت فيها أجسادهم الطريّة لتزداد صلابة وقوة.

ولأنها قرّرت أن تختبرني وترى قدراتي كندّاهة ستخلفها قريباً، فموعد رحيلها قد حُدّد، ها هي الآن تحاول إقناعي قائلة:

- لا تنسني أنه مكتوب علينا يا صغيرتي السادجة، والحياة تنصف الأقوى وتسحقّ الأضعف فيها، ومن يستمع لهوَاه يسير طواعية نحو حتفه.

لم أقتنع بكلامها، وجاوبتها بحنق:

- من نكون حتى ننهي حياتهم عشوائيًا؟ أين الإنصاف في أن تبطشي برجل ضعيف نتيجة انصياحه لكِ رغمًا عنه؟  
ابتسمت في هدوء وردت:

- لا تنسي أنكِ نداءه ولسيتِ من البشر، رغم أنني في بعض الأحيان أشك في ذلك، ربما هي لعنة أحد العرافات التي التهمت أحد أبنائها سابقًا أصابتي لأنجيكِ شوكة في حلقي لا أقدر على إنهاؤها ولا إقناعها؛ لأصدم بحبك المخزي لهم.

ورمقتني باشمئزاز ظاهر، واختفت في البحيرة، وتركتني أقف متهالكة لا أعرف بالضبط وجهتي، وأنا أحسّ كلماتها النارية تعصر مخي، ونسمات الليل الباردة تهز خصلات شعري الطويلة المتساقطة على جسدي، الذي لم أعبره ولو لمرة طوال تواجدي بالقربية، وفكرة واحدة عالقة برأسي، والتي تتمثل في إيماني بمبدأي الأزلي في أنني مستحيل أن أضرم مخلوقًا بشريًا أبدًا، داعية الله أن لا يسمع صوتي أحد من الذكور، وحتى إن حدث ذلك فلن أفرسه.

ومشيتُ وأنا أجزّ أذيال الخيبة والخوف يسري في عروقي، عندما تذكرت كلمات أمي التي نهتني أن موعد تحوّلِي إلى نداءه كاملة سيكون الليلة؛ لأنني بلغت سن الرشد القمري، وأن حلقي الملعون بات كاملاً لإطلاق أول تنهّداته لصوت النداء الموعود.

وزممتُ بحركة آلية شقّي، وطردتُ الهواجس من مخيلتي، ثم خمنتُ بيني وبين نفسي أنه لا يمكن نداء أحد من الشباب الطيبين في مثل هذه الساعة المتأخرة، لا بد أن معظمهم يغطّ في النوم العميق،

ولأنني أعرفهم فردًا فردًا جزمْتُ بذلك، وحاولت ألا أتذكر أي اسم منهم؛ حتى لا تتوارد أفكارنا ويحصل المحذور.

لكن هيات.. لقد فات الوقت ولم أشعر إلا وتفكيري مُركّز في (طه)، الشاب اليتيم الذي طالما كَفَفْتُ له دموعه وواسيته لنصبح مُقربين جدًّا بعد ذلك، وهديته التي صنعها لي تشهد على تودده، لا.. مستحيل.. لقد ركزتُ أكثر أني أحسّه ينصاع وعقله يغيب، لماذا لم ينم ذلك الساذج؟ ما هذا الصوت الذي يصدر مني؟ ارحمني.. لا تستمع إليه يا (طه)؟ أرجوك.

ولكن لم تمضِ هنيهات معدودة حتى رأيتَه يتقدّم نحوي، يجرّ رجلية ويخطو آخر خطواته نحو قدره المحتوم، وعيناه شاخصتان، ولم أقدر على التوقف ولا هو غير اتجاهه.

ذلك الشاب البريء، بسمرته المحببة، وسواعده القوية، ونظرة الطفل المعهودة منه، يقف أمامي مخدّرًا، أغمضت عيني وأنا أحسّ فجأة بجلدي يتمزّق، وقلبي معه في نفس الوقت؛ لتبرز لي أنياب تخرج من فمي، الذي فُتِحَ لآخره دون إرادتي.

قاومتُ التحوّل بشراسة وأنا أصرخ.. لأرضخ في الأخير وأنا أقول بحسرة:

- آسفة!

وفي أوجّ تحولي أيقنت أن الذي أطلق الوحش بداخلي لا يستطيع ردعه أبدًا، ولا أنكر أني في نفس الوقت شعرتُ بقوة رهيبية تشتعل وتندرببداية عهد جديد لوحش رهيب لا يضاهيه مخلوق، وحش تغدّى جيدًا من حب ضحاياه وانتصر على ضعفه ومشاعره لتنتصر الغريزة الطبيعية فيه، وتطلق معه جماع غريزة الافتراس.